باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

۞ وقولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

عن خَولَةَ بنتِ حكيمٍ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن نَزَلَ مَنزِلاً، فقال: أعوذُ بكلماتِ الله التّامّاتِ من شَرِّ ما خلقَ، لم يَضُرَّهُ شيءٌ حتى يرحلَ مِن منزِلهِ ذلك»(١). رواه مسلم(٢). [١١٦]

[شرح١١٦] مثل ما تقدم؛ و«باب من الشرك الاستعاذة بغير الله»: ما يكون لغير الله من باب الشرك الأكبر: الاستعاذة بغير الله، أي: في أمر لا يقدر عليه المخلوق؛ كأن يستعيذ بالأموات الذين ليس عندهم قدرة، أو بالجن، أو بالكواكب، أو بالأشجار والأحجار، أو بالأصنام أو ما أشبه ذلك؛ فهذا شرك بالله ﷻ، وهو شرك أكبر، وهذا هو المراد عند الإطلاق. =

---

(١) أخرجه مسلم: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٨).

(٢) ص١٣٨.

....

= وأما الاستعاذة بالمخلوق الحي الحاضر فيما يقدر عليه فهذا غير داخل في هذا الباب، وهكذا الدعاء والاستغاثة وأشباه ذلك؛ فالمراد بهذا: الاستغاثة بالأموات وأشباههم، أو بالجمادات ونحوها فيما وراء الأسباب الحسية؛ أما ما يتعلق بالأسباب الحسية من الحي الحاضر القادر فهو غير داخل في هذا الباب ولا في باب الاستغاثة كما يأتي.

فالمقصود من قوله: «باب من الشرك»، أي: الأكبر، الاستعاذة بغير الله؛ كالاستعاذة بالجن أو بالأموات أو بالجمادات، كالأصنام والأشجار والأحجار، وهذا من عمل الجاهلية، وهو من الشرك الأكبر، كما كان يقول العرب ـ إذا نزلوا وادياً ـ: نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، فيستعيذون بالجن؛ فأنزل الله في ذلك ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦] الآية [السادسة] من سورة الجن.

أي: زادوهم طغياناً وكبراً، أي: زاد الإنسُ الجنَّ طغياناً عليهم وعدواناً عليهم وتكبراً عليهم، على تفسيره الواو في ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ =

....

= بالإنس والهاء الجن، وقيل: معنى زادوهم أي: زاد الإنس الجن خوفاً وذعراً لما رأوهم يستجيرون بهم ويستعيذون بهم، أي: زادوهم ذعراً وإخافة لهم، وعمل أشياء تزيدهم ذعراً وتزيدهم خوفاً من الجن حتى يلهجوا بهم ويزدادوا في عبادتهم من دون الله ﷻ.

وعلى كلا التقديرين، فالمعنى ذم هذا العمل والتحذير منه، وأنه لا يليق بالمؤمن أن يفعل ذلك؛ بل يستعين بالله وحده؛ لأنه بيده أزمة الأمور، وبيده نواصي كل شيء ﷻ؛ فهو الذي يستطيع أن يمنع عنك وأن يجيرك ويحفظك مما تستغيثه منه، بخلاف الجن وغيرهم؛ فإنهم عاجزون ليس في قدرتهم أن يجيروك من كل شيء.

فالحاصل من هذا أن الاستعاذة بالله عبادة وقربة إلى الله ﷻ؛ فإذا صرفها العبد لغير الله كالاستعاذة بالجن أو بالأموات أو بالكواكب أو ما أشبه ذلك؛ فقد صرف العبادة لغير الله؛ فيكون هذا شركاً بالله ﷻ؛ أما إن كان هذا فيما يتعلق بالمخلوق الحي الحاضر؛ كأن تقول لزيد: أعذني من شر غلامك، أو من شر كلبك، أو زوجتك، بأن يمنعها، أو يتكلم عليها، أو ما أشبه ذلك، أو =

....

= تقول: أغثني من كذا؛ كما قال الله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

فاستغاثتك بالحي الحاضر في شيء يقدر عليه غير داخلة في الاستغاثة الممنوعة والاستعاذة الممنوعة أو ما أشبه ذلك.

فالمقصود أن ما يتعلق بالحي الحاضر القادر بالأسباب الحسية، غير داخل في العبادة، إنما العبادة هي ما يتعلق بها وراء الأسباب بالاستعاذة أو الاستغاثة أو الدعاء للأموات أو للجن أو للملائكة أو لغيرهم من الجمادات ومن الأحجار والأشجار والكواكب أو ما أشبه ذلك، هذا هو الذي ذكره الله في كتابه الكريم، وذكره الرسول ﷺ أنه شرك، وبينه وقرره أهل العلم أنه شرك وهذا هو المراد في هذا الباب.

وفي «الصحيح» عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»(١). =

---

(١) أخرجه مسلم: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٨).

....

= «يضرُّه» بضم الراء والهاء، أو قال: «يضرَّه» بالفتح على الأصل؛ فالضم للإتباع، والفتح على الأصل؛ لأن المشدد يفتح عند الجزم؛ فنقول: لم يضرَّ، لم يحلَّ، لم يردَّ، فإذا جاءت الهاء المضمومة جاز الرفع إتباعاً؛ فجائز قولنا: لم يردُّهُ لم يضرُّهُ؛ من باب الإتباع.

وهذا يدل على أن كلمات الله من صفاته ﷻ؛ لأن أهل العلم قد أجمعوا على أنه لا يستعاذ بغير الله، فلما جاءت النصوص دالة على شرعية الاستعاذة بكلمات الله، علمنا أن كلمات الله من صفاته سبحانه، وأنها غير مخلوقة إذ المخلوق لا يستعاذ به، فلما جاءت النصوص بشرعية الاستعاذة بكلمات الله التامات؛ دل هذا على أن القرآن كلام الله، وعلى أن كلمات الله غير مخلوقة بخلاف ما يقوله أهل البدع من الجهمية والمعتزلة ونحوهم.

وهذا يدل على شرعية الاستعاذة بكلمات الله، فيقول الإنسان: «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق»، ومعنى «التامات»: الكوامل التي لا يعتريها نقص ولا عيب؛ بل هي كاملة في نفسها، تامة لا نقص فيها، وقد جاء في هذا الباب استعاذات أخرى، منها: =

....

= «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»[1]، و«أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»[2] أي: النافذات.

فالحاصل أن كلمات الله تكون قدرية وهي النافذة، وتكون شرعية؛ كالقرآن وكلامه سبحانه التي جاءت به رسله، فهذا كلامه ﷻ الشرعي.

أما كلماته الكونية فهي ما يأمر به ويحكم به في عباده في قوله سبحانه ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فكلماته الكونية هي التي لا راد لها ولا معقب لها؛ بل نافذة بكل حال؛ أما كلماته الشرعية فهي التي تكلم بها ﷻ وأمر بها عباده ونهى عنها عباده؛ فالكلمات الشرعية قد ينفذها العباد، وقد يعصونها ويخالفونها كما قال الله جل وعلا: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ =

(١) أخرجه البخاري: أحاديث الأنبياء (٣٣٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٩).

....

= ﴿ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣] فمنهم من أقام ومنهم من لم يقم ومنهم من زكى ومنهم من لم يزك وهكذا.

فالأمر الشرعي والكلمات الشرعية والإرادة الشرعية قد ينفذها العباد وقد لا ينفذونها، فهي بالنسبة إليه ﷻ غير الكلمات الكونية؛ أما الكلمات الكونية وهي ما حكم به جل وعلا، وأمر به أمر تكوين وأمر إيجاد، فهذه نافذة في عباد الله لا يردها راد ولا يصدها صاد ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] ﷻ.

وفي هذا دلالة على أن الاستعاذة بكلمات الله جل وعلا؛ كالاستعاذة به سبحانه فتقول: أعوذ بالله، أو أعوذ بكلمات الله، فهذا كله صحيح، وكله استعاذة بالله جل وعلا؛ إذ الاستعاذة بصفات الله وبأسمائه ﷻ استعاذة به ﷻوفي الحديث: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك»[1]؛ فهو تعوذ =

(١) أخرجه مسلم: الصلاة (٤٨٦).

....

= برضاه وبعفوه.

وصفاته ﷻ كذاته ﷻ في كونها غير مخلوقة؛ بل صفات له ﷻ كاملة لا يعتريها نقص ولا عيب؛ فالتعوذ بها تعوذ به ﷻ ولجأ إليه ﷻ؛ فالمعنى: أنك تعوذت بصاحب الكلمات صاحب الرضا والغضب، الذي هو الله ﷻ؛ فالتعوذ بصفاته تعوذ به ﷻ، وليس داخلاً في التعوذ بالمخلوقات والله ﷻ أعلم*.

---

* س: هل القرآن داخل في كلماته ﷻ؟

ج: نعم، داخل؛ لأنه كلامه ﷻ.

س: إذا تسببت الأم في قتل ابنها، هل للأب أن يطالبها بدية ابنه؟

ج: نعم يطالب الأب وغير الأب، ويطالب الورثة.

* * *

۞ قال ـ رحمه الله ـ: وقولُه: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ الآية [العنكبوت:١٧] أمرَ اللهُ تعالى بابتغاءِ الرزقِ عندَه لا عندَ غيرِه ممن لا يملكُ رزقاً من الأوثان والأصنام وغيرِها، كما قال في أول الآية: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت:١٧].

قال ابنُ كثير: وهذا أبلغ في الحصر كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾(١) [التحريم:١١](٢). [١١٧]

[شرح١١٧] ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ أداة حصر، أي: إنما معبودات المشركين أوثان، جعلوها آلهة، وهي باطل، ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وتقدرون إفكاً، وتزعمون أنهم آلهة، وليسوا بآلهة، بل هي كذب وإفك وباطل، فهذه آلهتهم، وهي أشياء تسمى أوثاناً، ويكذبون، ويسمونها آلهة كذباً وإفكاً، «تخلقون» تقدرون هذا.

فالمعنى: أن ما قدرتموه وزعمتموه من كونها آلهة تنفع عابديها =

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٩).

(٢) ص١٥٦.

....

= وتشفع لهم عند الله أو تجلب لهم كذا، أو تدفع عنهم كذا، كله باطل، فإنما هي أشياء تقع في مفكرتهم وفي أنفسهم بدون حجة ولا برهان.

فليس هناك إله يعبد بحق سوى الله عز وجل، وأما هذه الآلهة التي زعموها فهي أوثان وأشياء مكذوبة، ظنوها آلهة واعتقدوها آلهة باطلاً بلا حجة ولا برهان، سواء كان حجراً أو شجراً أو إنساناً أو ملكاً أو غير ذلك.

۞ ولهذا قال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: لا عندَ غيرِه؛ لأنه المالكُ له، وغيرُه لا يملكُ شيئاً من ذلك ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادةَ وحدَه لا شريكَ له ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ أي: على ما أنعم عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] أي: سيجازي كلَّ عاملٍ بعملِه[1].

قلتُ: في الآية الردُّ على المشركين الذين يَدعُون غيرَ الله ليشفعوا لهم عندَه في جَلبِ الرزقِ، فما ظنُّك بمن دعاهم أنفسَهم، واستغاثَ بهم ليرزُقوه وينصُروه كما هو الواقع من عُبّادِ القبور؟![2]. [١١٨]

[شرح١١٨] أي: إذا كان هذا الذم والعيب بوصفهم أنهم عبدوهم ـ في حق من كان يعتقدها شفعاء أو وسطاء، لا أنهم يتصرفون بأنفسهم، بل يعتقدونهم وسطاء، ومع هذا كفرهم الله، وبين ضلالهم وضلال عابديهم ـ فما ظنك بمن زعم أن آلهته هي المتصرفة في الكون والمدبرة للعباد، وأنها تخلق وترزق وتدبر أمر من =

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٦٩).

(٢) ص١٥٦.

....

= دعاها، فيكون كفره أكبر، وشركه أعظم، ويكون قد زاد على كفر المشركين الأولين، نعوذ بالله.

۞ وقال المصنفُ: وفيه أن طلبَ الرزقِ لا ينبغي إلا مِن الله كما أن الجنةَ لا تُطلَب إلا منه[1]. [١١٩]

[شرح١١٩] قال: وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت:١٧] بين أنهم لا يملكون الرزق، والذي يملك الرزق هو الله سبحانه وتعالى، سواء كان الرزق علماً أو عملاً صالحاً أو درهماً، أو ديناراً، أو طعاماً، فالأرزاق أنواع، أعظمها العلم النافع، والتوفيق للهدى، فليس شيء بيد غير الله، ولا يملكه غير الله، بل هو بيد الله سبحانه وتعالى.

هو المالك له، وهو سبحانه وتعالى، المَانُّ به على من يشاء، فالأصنام والأوثان والمخلوقات لا تملك الرزق، ولا تملك أن تعطي علماً، ولا تملك أن تعطي صحة، ولا تملك أن تكشف ضرّاً، ولا تملك أن تعطي ولداً، إلى غير ذلك، بل الله هو الذي يهب هذه الأشياء وبالأسباب التي يشاؤها ويقدرها سبحانه وتعالى.

---

(١) ص١٥٦.

۞ قال: وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف:٥-٦]، حاصلُ كلام المفسرين أن الله -تعالى- حكمَ بأنه لا أضلَّ ممن يدعو مِن دون الله، لا دعاءَ عبادةٍ، ولا دعاءَ مسألةٍ واستغاثةٍ من هذه حاله[1]. [١٢٠]

[شرح١٢٠] لا أضل ولا أتعس ولا أشر ممن هذه حاله، وهذا نص الآية، نسأل الله العافية.

---

(١) ص١٥٦.

۞ ومعنى الاستفهامِ فيه إنكارُ أن يكونَ في الضُّلّالِ كلِّهم أبلغَ ضَلالاً ممن عَبَدَ غيرَ الله، ودعاهُ، حيث يتركون دعاءَ السميعِ المجيبِ القادرِ على تحصيل كلِّ بُغيَةٍ ومرامٍ، ويدعون من دونه من لا يستجيبُ لهم، ولا قدرةَ به على استجابة أحدٍ منهم ما دام في الدنيا، وإلى أن تقومَ القيامةُ كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرعد:١٤].

وقوله: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥] أي: لا يشعرون بدعاءِ مَن دعاهُم؛ لأنهم إما عِبادٌ مُسخَّرون مشتغلون بأحوالهم كالملائكة، وإما أمواتٌ كالأنبياء والصالحين، وإما أصنامٌ وأوثانٌ.

وقولُه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف:٦] أي: ﴿وَإِذَا﴾ قامت القيامةُ و﴿حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ للحساب عادَوْهم ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ الدعاءِ وغيرِه من أنواع العبادة ﴿كَٰفِرِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ =

= ﴿ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

فليسوا في الدارَينِ إلا على نكَدٍ ومَضرَّةٍ، لا تتولّاهم بالاستجابة في الدنيا، وتجحَدُ عبادتَهم في الآخرة، وهم أحوجُ ما كانوا إليها[1]. [١٢١]

[شرح١٢١] كما قد تقع بعض الاستجابات لبعض عباد القبور، فليست من المعبودين، فالمعبودون لا يشعرون بهم كما قال الله جل وعلا، ولكنه شيء قد يقع من شياطينهم، التي تغويهم وتضلهم، فيظنون أن هذا الشيء من نفس المعبود من دون الله، من النبي أو من البدوي أو من عبد القادر أو من فلان، وإنما هي الشياطين التي توسطت بينهم، وصارت تغويهم وتضلهم وتأخذهم إلى الكفر.

فربما قضت لهم بعض الحوائج، فظنوا أن الولي أو النبي قد قام من قبره ومن محله فقضى لهم هذه الحاجة، وإنما هي الشياطين التي تضلهم كما كان للعزى ومناة واللات من هذه الأشياء الكثير، وكما هو مشاهد من عباد القبور إلى يومنا هذا، فيسمعون منها الصوت، =

---

(١) ص١٥٦-١٥٧.

....

= ويسمعون منها الإجابة في بعض الأشياء، وهي جماد، ولكن الشياطين تلتبس بها، وتدخل فيها، وتكون حولها حتى تغويهم، وحتى تقضي لهم بعض الحاجات، فقد تأتي لهم بمال، وقد تأتي لهم بشيء من المطالب، فالشياطين هي التي تغوي من عبدها من دون الله، نعوذ بالله من هذا*.

---

* س: بعضهم يدعو بنزول المطر فينزل مطر وافر.

ج: هذا قد يوافي القدر، فقد يقع شيء مما يوافق القدر، أو يكون فيهم مضطرون، يدعون الله دعوة مضطر، فيجاب، وهم لا يشعرون أن هذا من أجل هذا، بل يظنون أن هذا من أجل الولي وكرامته، والله المستعان.

۞ وفي الآيتين مسائلُ نبَّه عليها المصنفُ:

أحدُها: أنه لا أضلَّ ممن دعا غيرَ الله.

الثانية: أنه غافلٌ عن دعاء الداعي، لا يدري عنه.

الثالثة: أن تلك الدعوةَ سبب لبغضِ المدعوِّ للداعي وعداوتِه له.

الرابعة: تسميةُ تلك الدعوة عبادةً للمدعوِّ.

الخامسة: كُفرُ المدعوِّ بتلك العبادةِ.

السادسة: أن هذه الأمورَ هي سببُ كونِه أضلَّ الناسِ(١). [١٢٢]

[شرح١٢٢] والسابعة أيضاً: أن هذه الاستجابة منتفية إلى يوم القيامة.

وأيضاً فائدة أخرى عظيمة: وهي أن هؤلاء الآلهة المدعوين من دون الله لا يستجيبون إلى يوم القيامة، فليس عن وقت قريب، أو بوقت دون وقت، بل هو منتف إلى يوم القيامة انتفاءً تاماً، ليس له نهاية.

---

(١) ص١٥٧.

۞ قال: وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢] يقرِّر تعالى أنه الإلهُ الواحدُ الذي لا شريكَ له ولا معبودَ سواه؛ مما يشترك في معرفته المؤمنُ والكافرُ؛ لأن القلوبَ مفطورةٌ على ذلك، فمتى جاء الاضطرارُ رجعتِ القلوبُ إلى الفطرةِ، وزال ما ينازعها، فالتجأت إليه، وأنابت إليه وحدَه لا شريكَ له، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٥٣-٥٤][(١)]. [١٢٣]

[شرح١٢٣] هذه حال المشركين الأولين؛ لأنهم إلى الفطرة أقرب من هؤلاء المتأخرين، إذا جاءت الشدائد لجؤوا إلى الله ودعوه سبحانه وتركوا آلهتهم، وإذا جاء الرخاء أشركوا بالله.

هذه حال الأولين أما حال الآخرين فشرك الآخرين شرك أشد من هذا وأفظع، فإذا جاءت الشدائد أخلصوا لمعبوديهم من دون =

---

(١) ص١٥٧-١٥٨.

....

= الله وتعلقوا بهم، وطلبوا حوائجهم منهم، واضطروا إليهم، وتضرعوا إليهم كما هو مشاهد من عباد البدوي والحسين والرسول ﷺ وغير ذلك، فإذا جاءت الشدائد رأيتهم يلهجون ويصرخون لهذه المعبودات من دون الله، يعني: هم أسوأ حالاً من الأولين، وأشر من الأولين، وأردأ فطرة، وأقل بصيرة. نسأل الله العافية.

يقول من شاهدهم في المراكب في البحار عندما تشتد الرياح يسمعونهم يصيحون ويقولون: يا سيدي عبد القادر، وهذا يقول: يا سيدي العيدروس، وهذا يقول: يا سيدي البدوي وهذا يقول... هكذا يلهجون بهذه الآلهة المعبودة من دون الله وينسون الله. نسأل الله العافية.

۞ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر:٨]، ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآن، يبيِّنُ تعالى أنه المدعوُّ عند الشدائد، الكاشفُ للسوء وحدَه، فيكون هو المعبودَ وحدَه، وكذا قال في هذه الآية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢] أي: مَن هو الذي لا يَلجأُ المضطرُّ إلا إليه، والذي لا يكشف ضُرَّ المضطرين سواه.

ومن المعلومِ أن المشركين كانوا يعلمون أنه لا يقدِرُ على هذه الأمورِ إلا اللهُ وحدَه، وإذا جاءتْهم الشدائدُ أخلصوا الدعاءَ لله، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

فتبيَّنَ أن مَن اعتقدَ في غيرِ الله أنه يكشف السوءَ أو يُجيبُ دعوةَ المضطرِّ، أو دعاه لذلك فقد أشركَ شِركاً أكبرَ مِن شِركِ العرب كما هو الواقعُ من عُبّادِ القبورِ. =

= قال: وروى الطبرانيُّ بإسناده: أنه كان في زمنِ النبيِّ ﷺ منافقٌ يُؤذي المؤمنين، فقال بعضُهم: قوموا بنا نستغيثُ برسول الله ﷺ من هذا المنافقِ، فقال النبيُّ ﷺ: «إنه لا يُستغاثُ بي وإنما يُستغاثُ بالله»[1].

قوله: «روى الطبراني» هو الإمامُ الحافظ الثقةُ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مُطَيرٍ اللَّخميُّ الطبرانيُّ صاحب «المعاجم الثلاثة» وغيرِها، روى عن النَّسائيِّ وإسحاقَ بن إبراهيم الدَّبَريِّ وخَلْقٍ كثير. ومات سنة ستين وثلاث مئة[2]. [١٢٤]

[شرح١٢٤] إنما هو «إسحاق بن إبراهيم الدبري»، بالباء الموحدة نسبةً إلى محل باليمن يقال له دَبَر، ذكره الجماعة.

يكنى أبا القاسم رحمه الله، وقد متع وعمر مئة عام، ولد في =

---

(١) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٩) وعزاه للطبراني، وقد رواه أحمد (٥/ ٣١٧) ولفظه: أن رجلاً سمع عبادة بن الصامت يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: «لا يُقام لي، إنما يُقام لله».

(٢) ص١٥٨.

....

= مئتين وستين ومات سنة ثلاث مئة وستين، فعاش مئة عام رحمه الله، ووفق لجمع كثير من العلم، وأدرك مشايخ كثيرين رحمه الله، فألحق الأحفاد بالأجداد، وألحق الجماعات الكثيرة بأسلافهم وأجدادهم في الرواية.

۞ وقد بيَّضَ المصنفُ لاسم الراوي وكأنه ـ والله أعلم ـ نقلَه عن غيرِه أو كَتَبَه من حِفظه، والحديثُ عن عبادةَ بن الصامتِ رضي الله عنه[1]*.

* س: ما درجة الحديث؟

ج: فيه ضعف؛ لأنه من رواية ابن لهيعة، ولكن له شواهد في المعنى فيما يتعلق بتحريم الاستغاثة بغير الله، في الأمور التي من خصائص الله سبحانه وتعالى ويأتي توجيه المؤلف لهذا.

(١) ص١٥٨.

۞ قولُه: (أنه كان في زمنِ النبيِّ ﷺ منافقٌ يُؤذي المؤمنينَ) هذا المنافق لم أقِف على تسميته، ويُحتمل أن يكونَ هو عبدَ الله ابنَ أُبيٍّ فإنه معروفٌ بالأذى للمؤمنين بالكلام في أعراضِهم ونحوِ ذلك، أما أذاهم بنحوِ ضربٍ أو زجر، فلا نعلمُ منافقاً بهذه الصفة(١). [١٢٥]

[شرح١٢٥] لأنهم لا يتمكنون من ذلك؛ لأنهم لو أظهروا هذا لأُخِذوا وعُوقبوا أو قُتلوا، لكن يحصل منهم الأذى باللسان واللمز والهمز والسخرية والإشارات الخبيثة، فإذا فُطِن لهم أنكروا أو تأولوا حتى لا يُفطَن لأعمالهم.

---

(١) ص١٥٨.

۞ قولُه: (فقال بعضُهم) أي: بعضُ المؤمنين، وهذا البعض القائل لذلك يحتمل أن يكون واحداً وأن يكون جماعةً، والظاهر أنه واحد، وأظن في بعض الروايات أنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه(1).(2) [١٢٦]

[شرح١٢٦] نعم هكذا جاء في الرواية أنه أبو بكر الصديق.

---

(١) كما في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٥٩)، وأحمد (٥/ ٣١٧).

(٢) ص١٥٨.

۞ قولُه: (قوموا بنا نستغيثُ برسولِ الله ﷺ) مرادُهم الاستغاثةُ به فيما يقدرُ عليه، بكفِّ المنافقِ عن أذاهم، بنحو ضربِه أو زجرِه، لا الاستغاثةُ فيما لا يقدر عليه إلا الله.

قولُه: (إنه لا يُستغاثُ بي وإنما يُستغاثُ بالله) قال بعضُهم: فيه التصريُح بأنه لا يُستغاثُ بالنبيِّ ﷺ في الأمورِ، وإنما يُستغاثُ بالله، والظاهرُ أن مرادَه ﷺ إرشادُهم إلى التأدب مع الله في الألفاظ؛ لأن استغاثَتَهم به ﷺ من المنافق من الأمور التي يقدِرُ عليها، إما بزجره أو تعزيرِه ونحوِ ذلك، فظهر أن المرادَ بذلك الإرشادُ إلى حُسنِ اللفظِ، والحمايةُ منه ﷺ لِجَنابِ التوحيد، وتعظيمُ الله تبارك وتعالى.

فإذا كان هذا كلامَه ﷺ في الاستغاثة به فيما يقدرُ عليه فكيف بالاستغاثة به أو بغيرِه في الأمورِ المهمةِ التي لا يقدرُ عليها أحدٌ إلا الله، كما هو جارٍ على ألسنة كثيرٍ من الشعراء وغيرِهم، وقَلَّ مَن يعرفُ أن ذلك منكرٌ، فضلاً عن معرفةِ =

= كونه شِركاً[1]. [١٢٧]

[شرح١٢٧] وقال بعضهم في هذا المعنى: ولعله إنما أنكر عليهم؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا يستطيع ذلك؛ لأنه ممنوع من قتل المنافقين لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، أو لأن هذا المنافق هو عبد الله ابن أُبيّ الذي إذا قُتِل ربما ترتب على قتله مفاسد كثيرة، وخُشِي من شر كثير، فكان من الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله جل وعلا في هذا المعنى.

فلهذا قال: «إنه لا يستغاث بي»؛ لأنه لم يؤذن لي بقتله ونحوه، فيكون ذلك من باب الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله جل وعلا من أجل الملابسات التي تتعلق بهذا الشخص المعين، وأن قتله قد يترتب عليه ما لا تحمد عقباه، فيكون هذا من باب الأمور الأخرى التي ليست من مقدورات المخلوق ولهذا قال: «لا يستغاث بي» لمثل هذا.

هذا بخلاف الأمور المقدور عليها، فإنه لا بأس أن يستغاث به فيها كما استغاث به الصحابة فيما يتعلق بطلب الغوث من الله =

---

(١) ص١٥٩.

....

= عز وجل عند الجدب والقحط: استسق لنا، وكما سيكون يوم القيامة حين يأتونه يطلبون منه الشفاعة ليريح الناس من كرب الموقف يوم القيامة؛ لأنه حي قادر على أن يتعاطى أسباب الشفاعة من سجوده بين يدي الله جل وعلا وخضوعه بين يديه حتى يؤذن له في الشفاعة.

ومن هذا قصة موسى، فإن الإسرائيلي استغاث به، وموسى دون محمد ﷺ في الفضل، قال: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥] فإذا كان موسى يستغاث به في الأمور الجائزة المقدور عليها، فمحمد من باب أولى في الأمور المقدور عليها، وإنما الممنوع الأمور التي لا يقدر عليها، بل هي من خصائص الله، كالاستغاثة به في السلامة من النار وفي دخول الجنة ونحو ذلك بغير الطريق الشرعي وهو متابعته والسير على منهاجه عليه الصلاة والسلام.

۞ فإن قلتَ: ما الجمعُ بين هذا الحديثِ وبين قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

فإن ظاهِرَ الحديث المنعُ من إطلاق لفظِ الاستغاثةِ على المخلوقِ فيما يقدرُ عليه، وظاهرُ الآيةِ جوازُه، قيل: تُحمل الآيةُ على الجوازِ، والحديثُ على الأدبِ والأولى؛ والله أعلم[١]. [١٢٨]

[شرح١٢٨] لكن هذا فيه نظر، والأولى مثلما تقدم أن هذا إن صح؛ لأن في سنده ضعفاً، فعلى تقدير صحته يكون هناك أشياء قد منع منها عليه الصلاة والسلام، فإنه قيل له في قتل عبد الله بن أبي قال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»[٢].

---

(١) ص١٥٩.

(٢) أخرجه البخاري: تفسير القرآن (٤٩٠٥)، ومسلم: البر والصلة والآداب (٢٥٨٤).

۞ وقد تبيَّن بما ذُكِر في هذا الباب وشرحِه من الآيات والأحاديثِ وأقوالِ العلماء أن دعاءَ الميتِ والغائبِ والحاضرِ فيما لا يقدرُ عليه إلا الله، والاستغاثةَ بغير الله في كشف الضُّرِ أو تحويله: هو الشركُ الأكبرُ، بل هو أكبرُ أنواعِ الشركِ؛ لأن الدعاءَ مُخُّ العبادةِ؛ ولأن من خصائص الإلهيةِ إفرادُ الله بسؤالِ ذلك، إذ معنى الإله هو الذي يُعبَد لأجل هذه الأمور؛ ولأن الداعي إنما يدعو إلهه عند انقطاعِ أملِه مما سواه.

وذلك هو خلاصةُ التوحيد، وهو انقطاعُ الأملِ مما سوى الله، فمن صرفَ شيئاً من ذلك لغير الله فقد ساوى بينه وبين الله، وذلك هو الشركُ؛ ولهذا يقول المشركون لآلهتهم وهم في الجحيم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء الآيتين: ٩٧ - ٩٨][1]. [١٢٩]

[شرح١٢٩] هذا يسمى الشرك التنفيذي.

خالق الخلق وبارئ العباد يعلم هذا، لكن بالنسبة إلى مسألة =

---

(١) ص١٥٩.

....

= الدعاء والاستغاثة واللجء ونحو ذلك قد ساووهم به، وليس في اعتقادهم أنهم يخلقون أو يرزقون، هذا بالنسبة إلى الجاهلية الأولى*.

---

* س: أليس ما ذكر بأن «الدعاء مخ العبادة»(١) حري بهذا؟

ج: فيه ضعف، وإن كان صحيحاً من جهة مراعاة المعنى؛ لأن من عادة العبد الفزع إلى معبوده عند الضرورات، فيعطي ما في قلبه ويرجع إلى معبوده، فيعطي كل ما في نفسه ويلجأ إليه، فيحصل من ذلك أن هذا مخ الشيء الخالص، حيث جعل كل ما في نفسه لهذا المعبود، وطرحه بين يديه، والتجأ به إليه، فصار بهذا المعنى مخاً خالصاً.

س: وما اللفظ الصحيح؟

ج: «الدعاء هو العبادة»(٢)، وفيه هذا المعنى السابق؛ لأن فيه الحصر الادعائي.

---

(١) أخرجه الترمذي: الدعوات (٣٣٧١).

(٢) أخرجه الترمذي: تفسير القرآن (٢٩٦٩)، وأبو داود: الصلاة (١٤٧٩)، وابن ماجه: الدعاء (٣٨٢٨).

۞ ولكن لِعُبّادِ القبورِ على هذا شُبهات، ذكر المصنفُ كثيراً منها في «كشف الشبهات» ونحن نذكر هنا ما لم يذكره:

فمن ذلك أنهم احتجوا بحديثٍ رواه الترمذيُّ في «جامعه» حيث قال: حدَّثنا محمودُ بنُ غَيلانَ قال: حدَّثنا عثمانُ بن عُمرَ قال: حدَّثنا شُعبةُ، عن أبي جعفرٍ، عن عُمارةَ بنِ خُزَيمةَ بن ثابتٍ، عن عثمانَ بنِ حُنَيفٍ: أن رجلاً ضريرَ البصرِ أتى النبيَّ ﷺ فقال: ادعُ اللهَ أن يعافِيني، قال: «إنْ شئتَ دعوتُ، وإن شئتَ صبرتَ فهو خيرٌ لك». قال: فادعُهْ.

فأمرَه أن يتوضَّأَ ويُحسِنَ وُضُوءَه ويدعُوَ بهذا الدعاء: «اللهمَّ إني أسألُكَ وأتوجَّهُ إليكَ بنبيِّكَ محمدٍ نبيِّ الرحمةِ، إني توجَّهتُ بهِ إلى رَبِّي في حاجتي هذه لِتُقضَى، اللهمَّ فشفِّعهُ فيَّ»[1].

قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ، لا نعرفُه إلا من =

---

(١) أخرجه الترمذي: الدعوات (٣٥٧٨)، وابن ماجه: إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥).

= رواية أبي جعفرٍ، وهو غيرُ الخَطميِّ[1]. هكذا رواه الترمذيُّ، ورواه النسائيُّ وابنُ شاهين والبيهقيُّ كذلك، وفي بعض الروايات: يا محمد إني أتوجه ... إلى آخره[2].

وهذه اللفظةُ هي التي تعلَّق بها المشركون، وليست عندَ هؤلاء الأئمة، قالوا: فلو كان دعاءُ غيرِ الله شِركاً لم يُعلِّم النبيُّ ﷺ الأعمَى هذا الدعاءَ الذي فيه نداءُ غيرِ الله.

والجوابُ من وجوهٍ:

الأول: أن هذا الحديثَ من أصله وإنْ صحَّحه الترمذيُّ فإن في ثبوته نظراً؛ لأن الترمذيَّ يتساهل في التصحيح كالحاكم، لكن الترمذيَّ أحسنُ نقداً، كما نصَّ على ذلك الأئمةُ، ووجهُ عدمِ ثبوته أنه قد نصَّ أنَّ أبا جعفرٍ الذي عليه مدارُ هذا الحديث هو غيرُ الخطميِّ، وإذا كان غيرَه فهو لا يُعَرف. =

---

(١) وفي بعض نسخ الترمذي: وهو الخطمي، باسقاط لفظة «غير» ولعله الصواب، كما ذكر في إحدى الروايات عند أحمد (٤/ ١٣٨)، وهو عمير بن يزيد بن عمير الأنصاري، أبو جعفر الخطميُّ.

(٢) أخرجه ابن ماجه: إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥).

= ولعلَّ عُمدةَ الترمذيِّ في تصحيحه أن شعبةَ لا يروي إلا عن ثقةٍ، وهذا فيه نظرٌ؛ فقد قال عاصمُ بن عليٍّ: سمعتُ شعبةَ يقول: لو لم أُحدِّثكم إلا عن ثقةٍ لم أحدِّثكم إلا عن ثلاثة، وفي نسخة: عن ثلاثين، ذكره الحافظ العراقي، وهذا اعترافٌ منه بأنه يروي عن الثقةِ وغيرِه، فيُنظَر في حاله، ويَتوقَّف الاحتجاجُ به على ثبوتِ صحته[1]*.

---

* س: في بعض نسخ الترمذي: هو الخطميُّ، وفي بعضها: هو غير الخطمي؟ وفي «التقريب»:

عثمان بن عمرو بن ساج بمهملة وآخره جيم، الجزري، مولى بني أمية، وقد ينسب إلى جده، فيه ضعف من التاسعة.

ج: ينظر غيره.

س: عثمان بن عمر بن موسى بن عبيد الله بن مَعمَر التيمي، المدني قاضيها، مقبول من السادسة، مات في خلافة المنصور. البخاري تعليقاً وأبو داود وابن ماجه.

ج: غيره.

س: عثمان بن عمر بن فارس العبدي بصري أصله من بخارى، ثقة، =

---

(١) ص١٥٩-١٦٠.

....

= قيل: كان يحيى بن سعيد لا يرضاه، من التاسعة، مات سنة تسعين ومائتين...

ج: تسعين ومائة، يراجع التهذيب، أما «مائتين» فسبق قلم[1].

هكذا في «التقريب»: عثمان بن عمر بن فارس العبدي بصري، بدون واو والواو خطأ، وهو المقصود هنا.

---

(١) الصواب: تسع ومائتين، كما في «التهذيب». المعتنى.

۞ الثاني: أنه في غير محلِّ النزاع؛ فأين طلبُ الأعمى من النبيِّ ﷺ أن يدعوَ له، وتوجّهُه بدعائه مع حضورِه، مِن دعاءِ الأمواتِ، والسجودِ لهم ولقبورِهم، والتوكلِ عليهم، والالتجاءِ إليهم في الشدائدِ، والنذرِ والذبحِ لهم، وخطابِهم للحوائج من الأمكنة البعيدة: يا سيدي يا مولاي افعل بي كذا؟! فحديث الأعمى شيءٌ ودعاءُ غيرِ الله تعالى والاستغاثةُ به شيءٌ آخر[1]. [١٣٠]

[شرح١٣٠] هذا هو المعتمد سواء صح الحديث أو لم يصح، فمسألة التوسل بدعاء النبي أو بذات النبي أو بجاه النبي شيء، ودعاء الأموات والاستغاثة بالأموات شيء آخر، دعاء الأموات والاستغاثة بالأموات شرك أكبر، وهذا هو عبادة الله وحده ﷻ إذا صرف له، وإذا صرف لغيره صار شركاً أكبر، وأما التوسل بحق فلان أو بجاه فلان أو بالنبي فلان أو بدعاء فلان فهذا شيء آخر، والمعتمد عند أهل العلم وعند جماهيرهم أنه لا يتوسل بحق فلان ولا بجاه فلان ولا بذات فلان؛ لأن الرسول ﷺ ما فعل ذلك ولا أصحابه. =

---

(١) ص١٦٠.

....

= وأما هذه الرواية فليس فيها حجة لأنه توسل بدعائه في حياته ﷺ؛ ولذلك قال: اللهمَّ شفِّعه فيَّ، فالرسول داع، وهو توسل بدعاء النبي ﷺ، ولهذا لما استسقى المسلمون في وقت عمر استسقوا بدعاء العباس[1] ولم يستسقوا بالنبي ﷺ، وهم يعلمون أن ذاته محترمة، وأن فضله باق حياً وميتاً عليه الصلاة والسلام، ولكن علموا أن الاستسقاء به في حياته استسقاء بدعائه وشفاعته عليه الصلاة والسلام، فهو يدعو وهم يؤمنون، وبعد وفاته انقطع هذا، ولهذا استسقوا بالعباس ليدعو لهم وهو حي بين أظهرهم، فدعا ودعوا، هذا شيء وذلك شيء.

والمقصود أن الواقع هنا من باب التوسل بالدعاء والشفاعة من الحي الحاضر، وليس له تعلق بالأموات ولا بدعاء الأموات لو كان أهل الشرك يعقلون ويفهمون، ولكن من عادة المبطل والظالم نفسه أن يتشبث بما لا ينفعه، ويتعلق بخيط العنكبوت الذي يضره.

وإن ثبت فإنما فيه توسل بالدعاء، والتوسل يكون بأمور: =

(١) أخرجه البخاري: الجمعة (١٠١٠)، وانظر «فتح الباري» (٢/ ٤٩٧).

....

= بأسماء الله وصفاته، وبالأعمال الصالحات، وبدعاء الحي؛ كأن يقول: يا أخي، ادع الله لي، أو: اللهم شفع في فلاناً، اللهم إني أسأل بفلان بدعائه وشفاعته لا بذاته وحقه.

۞ فليس في حديثِ الأعمى شيءٌ غيرَ أنه طلب من النبيِّ ﷺ أن يدعوَ له، ويشفعَ له، فهو تَوَسُّلٌ بدعائه وشفاعته، ولهذا قال في آخره: «اللهم فشفِّعه فيَّ» فعُلِمَ أنه شَفَعَ له، وفي رواية: أنه طلب من النبي ﷺ أن يدعوَ له، فدلَّ الحديثُ على أنه ﷺ شَفَع له بدعائه، وأن النبيَّ ﷺ أمرَه هو أن يدعوَ الله ويسألَه قَبولَ شفاعته.

فهذا من أعظم الأدلَّة على أن دعاءَ غيرِ الله شِركٌ؛ لأن النبي ﷺ أمره أن يسألَ الله قَبولَ شفاعته، فدلَّ على أن النبيَّ ﷺ لا يُدعَى، ولأنه ﷺ لم يَقدِر على شفائه إلا بدعاء الله له، فأين هذا من تلك الطوامِّ؟

والكلام إنما هو في سؤال الغائب أو سؤال المخلوق فيما لا يقدرُ عليه إلا الله، أما أن تأتي شخصاً يخاطبُك وتسألُه أن يدعوَ لك فلا إنكارَ في ذلك على ما في حديث الأعمى.

فالحديثُ سواء كان صحيحاً أو لا، وسواءٌ ثبتَ قولُه فيه: يا محمد، أو لا ـ لا يدلُّ على سؤالِ الغائبِ، ولا على =

= سؤالِ المخلوقِ فيما لا يقدرُ عليه إلا الله بوجهٍ من وجوهِ الدلالاتِ، ومن ادَّعَى ذلك فهو مُفترٍ على الله وعلى رسوله ﷺ؛ لأنه إن كان سألَ النبيَّ ﷺ نفسَه فهو لم يسأل منه إلا ما يقدِرُ عليه، وهو أن يدعُوَ له، وهذا لا إنكارَ فيه، وإن كان تَوَجَّهَ به من غيرِ سؤالٍ منه نفسِه، فهو لم يسأل منه، وإنما سأل من الله به، سواء كان متوجهاً بدعائه كما هو نصُّ أوَّلِ الحديثِ وهو الصحيح، أو كان متوجهاً بذاته على قولٍ ضعيفٍ[1]. [١٣١]

[شرح١٣١] إن كان سأله نفسه فإنما سأل منه الشفاعة، وإن كان لم يسأله وإنما توجه به فهو في المعنى شفاعة به فقط، أي: توسل به، والمسؤول هو الله وحده.

يتوسل بالذات على قول، وهو قول ضعيف.

---

(١) ص١٦٠-١٦١.

۞ فإن التوجُّهَ بذواتِ المخلوقَين، والإقسامَ بهم على الله بدعةٌ منكرةٌ، لم تأتِ عن النبيِّ ﷺ، ولا عن أحدٍ من أصحابِه والتابعين لهم بإحسان، ولا الأئمةِ الأربعةِ ونحوِهم من أئمةِ الدِّينِ؛ قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحدٍ أن يدعُوَ الله إلا به. وقال أبو يوسف: أكرَهُ بحقِّ فلان، وبحقِّ أنبيائك ورسلِك، وبحقِّ البيتِ والمشعرِ الحرام.

وقال القُدُوري(١): المسألةُ بحقِّ المخلوقِ لا تجوزُ، فلا يقول: أسألُك بفلان أو بملائكتِكَ أو بأنبيائِكَ ونحوِ ذلك؛ لأنه لا حَقَّ للمخلوق على الخالق، واختارَه العزُّ ابنُ عبد السلام، إلا في حقِّ النبيِّ ﷺ خاصَّةً إن ثبت الحديثُ(٢). [١٣٢]

[شرح١٣٢] هذا اختيار العز بن عبد السلام ـ وهو عبد العزيز بن عبد السلام أبو محمد السلمي أحد فقهاء الشافعية ـ اختار المنع بالتوسل بالذوات والحقوق إلا في حق النبي ﷺ إن ثبت حديث =

---

(١) قال الشيخ: القدور محلة في بغداد يقال لها قدور.

(٢) ص١٦١.

....

= الأعمى، فلا بأس بالتوسل به خاصة لحديث الأعمى، وغاب عن ابن عبد السلام أن حديث الأعمى ليس توسلاً بالذات وإنما توسل بدعاء النبي وشفاعته عليه الصلاة والسلام، فعلى هذا يكون المعنى للجميع واحد*.

---

* س: ما قولكم في حديث: أسألك بحق السائلين[1]؟

ج: هو ضعيف، ثم لو صح فهو توسل بصفات الله، وليس توسلاً بحق المخلوقين، فحق السائل هو الإجابة، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ فإني أستجيب لكم، وحق الماشي في طاعة الله الإجابة، ولكن الحديث كما قلنا: ضعيف، بل يقول: اللهم أسألك بأسمائك وصفاتك ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] هذا هو المعتبر: اللهم إني أسألك بأسمائك وصفاتك، اللهم إني أسألك بإيماني بك وبأنبيائك وبمحبتي لك... فهذه أعمال صالحة يتوسل بها، فالإيمان والمحبة عمل صالح.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: المساجد (٧٧٨).

۞ يشير إلى حديثِ الأعمَى وقد تقدَّم أنه على تقديرِ ثبوتِه ليس فيه إلا أنه توسُّلٌ بدعائِه لا بذاته، وقد ورد في ذلك حديثٌ رواه الحاكم في «مستدركه» فأبعَد[1] النُّجعَةَ من طريقِ عبدِ الرحمن بن زيدِ بنِ أسلمَ: لما أذنَبَ آدمُ الذنَب الذي أذنَبهُ، رفعَ رأسَه إلى العرشِ فقال: أسألُك بحقِّ محمدٍ إلا غفرتَ لي... الحديث[2]، وهو حديث ضعيفٌ، بل موضوعٌ؛ لأنه مخالفٌ للقرآنِ؛ قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣].

فهذا هو الذي قالَه آدمُ، قال الذهبيُّ في هذا الحديثِ: أظنُّه موضوعاً، وعبد الرحمنُ بن زيد متفقٌ على ضعفِه، قال ابن معين: ليس حديثه بشيء[3]. [١٣٣]

[شرح١٣٣] ذكر أبو العباس بن تيمية هذا الحديث في الموضوعات؛ =

---

(١) أبعد: يعني ما أقدم عليه، يعني: نجع بعيداً، ونجع إلى كذا: سافر إلى محل كذا وكذا، والمقصود أنه أبعد عن الصواب، يعني: ذهب بعيداً عن الصواب.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦١٥)، وقال الذهبي في «التلخيص»: موضوع.

(٣) ص١٦١.

....

= كما ذكره جماعة آخرون؛ حديث أن آدم توسل بمحمد ووجده مكتوباً بساق العرش، فقال: ما الذي عرفك بمحمد؟ قال: إني رأيته مكتوباً على ساق العرش، فعرفت أنك لا تقرن باسمك إلا أحب الخلق إليك. فهذا رواه الحاكم من طريق عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، فهو عند أهل العلم موضوع؛ لأن عبد الرحمن ليس بشيء في الرواية وإن كان له شأن في التفسير*.

*** س: هل عبد الرحمن لا تصل درجة حديثه إلى الوضع؟**

ج: تصل إذا صار المعنى بعيداً عن الصواب، وأحاديثه ضعيفة، فليس من الأثبات، وقد يغلط ويروي أحاديث موضوعة؛ فالوضع له أسباب كثيرة ودلائل كثيرة.

۞ الثالث: أن قولَه: (يا محمد، إني أتوجه...) إلى آخره لم تثبت في أكثر الروايات، وبتقدير ثبوتها لا يدل على جواز دعاء غير الله؛ لأن هذا خطابٌ لحاضرٍ معيَّنٍ يراه ويسمع كلامَه، ولا إنكارَ في ذلك، فإن الحيَّ يُطلَب منه الدعاءُ كما يُطلَبُ منه ما يقدرُ عليه، فأين هذا من دعاءِ الغائبِ والميتِ لو كان أهلُ البدعِ والشركِ يعلمون؟!(١).

* * *

(١) ص١٦١.